خالد حميدة

قصص

طَوَافُ اليراع

دار حروف منثورة للنشر الإليكترونى

نوع العمل: قصص قصيرة جداً

اسم العمل: طواف اليراع

اسم المؤلف: خالد حميدة

الناشر: حروف منثورة للنشر الإليكترونى

الطبعة: الأولى ديسمبر 2018

تصميم الغلاف : فريق الدار

تنسيق داخلي: فريق الدار

تدقيق لغوى: بمعرفة الكاتب

مؤسس الدار

مروان محمد

Website: https://horofpdf.wixsite.com/ebook

Fan page: http://facebook.com/herufmansoura

Email: herufmansoura2011@gmail.com

دار حروف منثورة هي دار نشر إلكترونية لخدمات النشر الالكتروني المجاني ولا تتحمل أي مسئولية اتجاه المحتوى الذي يتحمل مسئوليته الكاتب وحده فقط وله حق استغلاله كيفما يشاء

قصص قصيرة جدا

طواف اليراع

خالد حميدة

الفهرس

غربة 7
وهم 8
سكارى 9
جهل 10
ظفر 11
سبر 12
هدى 13
حب 14
رحمة 15
السيد 16
إهدار 17
صبر 18
بلية 19
عنت 20
إرهابي 21
بيرق 22
للميت طوبى 23
فضول 25
تغابن 26
تسلّط 27
معاينة 28
مفاجآت 29

الجُمُعَة 31
غصب 32
ضنك 33
انكسار 34
تراكم 35
حسرة 36
أعشية 37
جهاد 38
دهور 39
ولادة 40
سقيم 41
موظف 42
غبار النجاح 43
كِتاب 45
لعنة الخنجر 46
مُضيّ 47
حاذق 48
مصلحة 49
نفاق 50
اقتراف 51
خضوع 52
فوات 53
تجديد 54

انفصام 55
مراهِقة 56
براءة 57
زرع 58
خبرات 59
سكرات 60
زهرة الحياة 63
رسالة إلى ضمير 64
لمسات يوم 66
عفاف 67
فراسة 68
طواف السنين 70
خريف السماء 72
غفران 73
مكر واهن 75

أسرارُ الألم ما علمت بها سوى روحها، غربة النفس أدهى وأمرّ من غربة الجسد؛ ويمتد سرطان الأسى وينمو حتى ينخر جدران الفؤاد، هكذا أيقنت في ذاتها. فجأة انفجر بركان بؤس حين تجلّى القيد سوار ذهب.

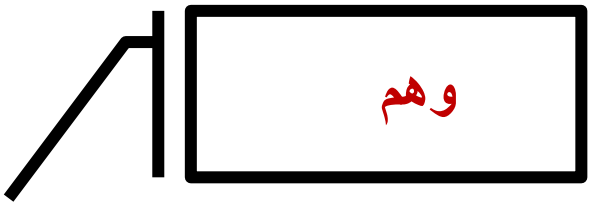

طافت حولها أحلامه، سرب نحوها وداده، نحرت حبه بالهجر لولا مسَّ الهوى لشغافها؛ سبق الموت حبّهما.

لذّة الحلم افتقدوها، يركل الأسى أملهم ويلوك التواكل اتّكالهم، تقطّعت بهم السبل حتى تاهوا في رحى الأيام - وللشقاء غصة. من بؤرة التيه انجلى الهمّ وتحققت كافة أحلامهم سوى أنهم ما ذاقوا طعم النجاح.

نضارة اللبن التي ارتشفها من صدرها ما زالت تناغي روحه؛ أغرّته بالبطش قوتَه الحديثة؛ وإذ به يتماهى مع القسوة؛ أشجارُ الحنين للبيت الأوّل اجتُثت عند سفوح طيشه. تبعثرَ الماضي البهيج وهجر الحياة بعد الحياة.

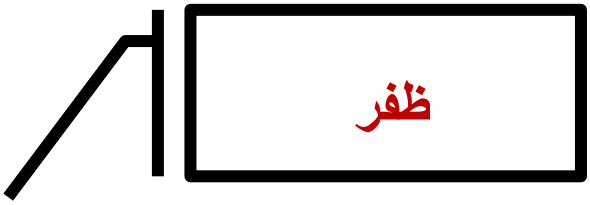

ترجَّل عن حلمه الوارف النقي، أوارُ الشهوة أتلفَ منه الفؤاد حتى طغى، اتّخذ المكر سبيلاً وراح يغشُّ من حوله في سبيل تحقيق الحلم الأبيض، وإذا بنجمِ حلمه يغيب في المستحيل، نال حلمه البهيّ بعدما عمد إلى تطهير نفسه بالوفاء.

حافلة تسير بأناة في بلدٍ مضطرب - كهلٌ سائقها - تحوي طلاب جامعة بينهما عاشقان، دوى صوت رصاصتين - ضمت يدا العاشقين بعضها؛ فجأة توقفت الحافلة صعد إليها رجلان من الثوار ضد الدكتاتور، قال أحدهما: نحن أبناء هذا الوطن نسعى لتسود خيراته على الجميع لا أن تحتكرها فئة واحدة نحن وأنتم إخوة وأولئك غرباء، الوجوم غزا وجوه الطلاب وما تفاعلوا مع محدثهم وبادلوه نظرات فارغة وكأنه يهرطق، نزل الرجل من الحافلة واتّصل بحاجزٍ تابع للدكتاتور.

أسراب الذنوب تدافعت نحوه ؛ تلقاها بثبات ، قرَّر الصبر ـ وللصمود حكاية. تعب الصبر من صبره ، شيء من الوهن تسلل إلى روحه ، خشية الهزيمة فاضت مآقيه فانهمرت رحمات.

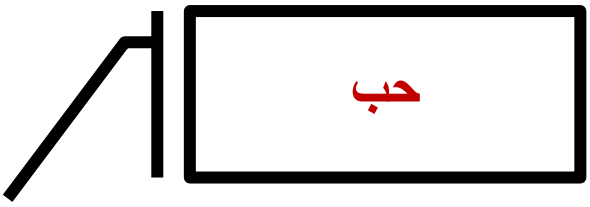

أصابه لحظها الرقيق ، من هول البهاء تمايلت شغافه ـ وللعشق رواية . اتَّكأ على ذاته يجمع أنفاسه . من حينها صار ثغرها بسّام.

زمنٌ توقّف فيه العقل، لأجل القتل قتلتِ الجيوش، والقتلى محمولون على النعوش، وأكثرُ الناسِ منشغلٌ بالمالٍ وزخارف الدنيا والنقوش، وأظلمتِ الدُنى، والإناث لا تلد إلّا ظالما فجّارا، والأرض لمن يذكر الله حنّت، الظالمون من أصلابهم بُعث الهدى.

تغنى بالانفتاح وكسر القيود وذاك ناموسه في الحياة. ممنوع الحب، ممنوع الحقد، الألم ممنوع وكذلك الفرح؛ هكذا شرّع قوانينه حين نال منصباً عائليا، ذوي القُربى أحسوا بازدواجيته، حين لفحه نور حرية الفكر تكسّرت دون الضياء آماله السوداء بالسيطرة.

أبدع في عمله، روى الناسُ سيرته، سُرِّب إليه بعضُ غرور لكنه طرده بالتواضع، رام الإخلاص، قارب الكمال لولا إشراكه الناس في إنجازه، من فعله جنى هباءً منثورا.

دون جبال الأسى فؤاد تتربّص به بنات الدهر، ذابت حوله الأفراح وتبخّرتِ البسماتُ، النجمات ألفت جهاده فزغردت في سرّها، هتف البؤس: أيها الصابر تعبتُ من حملِك لجبالي.

حدّثني صديق عن أبيه و شاشة قائلا: تعرتْ أمامه، حسبها جنة فأحرقه لظاها، تحسّر على نفسه، زفر حرّات العِبر، بثَّ فيها آماله الواهية فابتدرته بقيد صفيق.

لغرورها لذّة أحبّتِ التمتّع بها، رفضتِ الشباب الراغبين بها كزوجة، مهندسين، أطباء، قهقه فؤادها، ازدانت بجمالها سماواتها فنهلتْ من اللذّة المزيد ـ وللغرور شهوة . تفرّس بها الزمن، زوجة عامل نظافة تنبأ الناس في كتابها المُستطِر لولا رحيلها دون الكِبر.

دون جسد ابنه المسجى تهاونت أركانه يعاين سكرات الألم. حجّت إليه ذكريات خطاياه العتيقة حين قتل وسحل ونزع وقلع، من جانب الموت خاطبه ابنه: ها أنا أدفع عنك الثمن.

صديقٌ سأل صديقه المعلم: مالي أرى أقرانك في البيت نالوا الشهادات العُلا في الطب والهندسة وأنت دون ذلك ترزح، فردّ بحكمة ووقار: هي أجيال تمرُّ من عرق جبيني وكدح يميني.

في الرضا عاش وازدهر، رضا أمه جعله هدفا وغاية ونبراسا لشتى شؤونه، ماست دونه المصائب لتحط من عزمه فوجدت نديمه العزم ـ العزم على النجاح ـ هكذا قضى الثمانية وعشرين سنة من عمره، وإذ بالحِمام يحط عنده الرحال.

على فراش الموت شاب يعاين السكرات متتابعات ومتفرقات، يهذي ،يهلوس، تبتل بالندى ناصيته، يسحّ عرقه، حين الصحوة رأى حورية من الجنة تناديه: أن اقبل إليّ لتنال ثمار عملك.

صار يصيح بمن حوله من الوجوه المتجهمة: لا أستطيع لا أستطيع يجب علي أن استأذن أمي للذهاب. واحسرتاه في غرفة أخرى أمٌ شابَ نبعُ حنانها ،حزينة، منكسرة الفؤاد، تتهاوى أركانها يفتت كبدها الألم تسمع صوت ولدها فتزداد دموعها حرقة واستحال بؤسها جبال شاهقات، وبعد عظيم استجداء للأم الثكلى أتت إليه على

جناح الوهن تفيض من مآقيها المآسي والدمعات. وحين قدومها تلاقت النظرات واصطحبته الحوريةُ إلى الجنة.

أبو صفوان رجل يحب العزلة، يبالغ في الحذر، يتخفى من الناس، الأقاويل بدأ تنبت في صدورهم، وإذا بالموت يتسلل لواذا بمنزل الرجل ويقصّ شريط حياته، حين الدفن عِلقت أعين الناس بشواهد القبر.

ذات ربيع غاب العطر، الدهشة سيطرت على وجوه الفتيات؛ تسربلت النحلات قلقا، ضجَّ الخبر في الأفاق هتف الشذى: لا عودةَ لي إلا بالرحمة الآفلة.

عمله في مكتبة مهّد له الطريق للعبث في مشاعر البنات ـ للاشيء يلهو بأفئدتهن ـ تعرّف على عموم ردّات الفعل، خَبِر طرائق الفتيات وحيلهن في ستر الأسرار. وإذ بهيفاءَ ماجنةً لعبت بأحاسيسه وحواسه وكسّرت قلبه.

حسناءُ فاتنة، يسحرُ الأفئدةَ جمالُها، لاذ بها الحُسن وإذ بالشحوبِ يطرقُ بابَها، هرع الأهلُ لمعرفة السبب، زاروا عديد الأطباء، نتائج الفحوصات أكدت أنها فرّطت بما وُهِبتْ حين طيش.

لصوص اختطفوا طائرة، قتلوا ركابَّها وراحوا يلقون جثثَ قتلاهم .

صغيرة حلوة تلهو بالرياحين في حقل ربيعي، تستجدي عطرَها، سقطت بجانبها جثة غيبت براءتها .

عاشقان على شاطئ البحر يتبادلان الغنجَ والحبَّ، قالت لحبيبها: إن كنت تحبّني أحضر لي نظارتي ورمتها على سطح البحر، عاد الحبيب ليرى بجانب خليلته ميت اتُّهمت بقتله بسوء ظن مقيت .

ناسكٌ يناجي الله - روم الرزق - وفؤاده مترع بحب الشهوات والنفاق، جثة أخرى سقطت أمامه .

في الطائرة تقاتل القوم على الغنائم، أطلقوا الرصاص على بعضهم، انتقل الاشتباك لقُمرة القيادة والتحكم، قُتل الكابتن، خللٌ اجتاح المحركات .

في عرض المحيط حوتٌ ظالم يقتل للأكل والقتل، تمادى به الأمر حتى أهلك أخاه وصعد للسطح للاستجمام من علٍ سقطت على رأسه طائرة كسّرت دماغَه.

يومٌ ازدانت به الأيام، أناسٌ منهكون من أثقالٍ أعيت ذواتَهم، دخلوا المحاريبَ جوارَ مخلوقاتِ النورِ، النورُ عبقَ في المكان، أنهَوا المؤتمرَ الإلهي ركّعا بأجسادِهم دون قلوبِهم.

ضمَّها شارعٌ حزينٌ تحكي له وحدتَها ويئنُّ من لياليه المؤرقة؛ آنستهما الريح الهادئة في نهاية الغروب، شبح رجلٍ يخطف حقيبتها من يدِها ويتركُها تشجبُ الشارعَ وكآبته.

في حانةِ العذابِ هوى فؤادٌ، تجرّعَ الأسى حتى ثملَ، جرَّ إليه الرجاءُ بالخلاصِ، تنفّسَ الصُّعداء، ارتقى به الأملُ إلى سماءِ الوهم.

ذات بؤسٍ تشظَّى حلمُه، علقتْ بأهدابِه أعظمُ الأحزانِ، نثرَها ببسمةِ ما قبل الموتِ ـ وللغصة مرارة ـ دمعُ فؤادِهِ سحَّ على جدران روحه، ألفى الغيابُ حاضراً، تلاشى العمر وما حقَّق الحلم، فحلمه حلم الحلم.

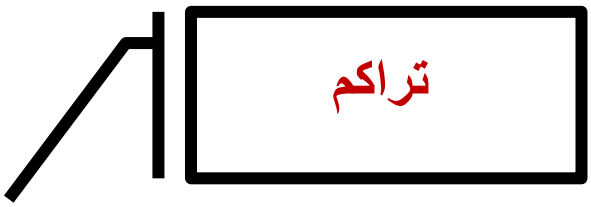

...امتطى حلمَ الغدِ المشرقِ ثم ما لبثَ أن انزوى على ذاته يلوذُ بعميقِ الألمِ والصمتِ، ذلك أنَّ حلمَه كان مخزياً وما جنى منه سوى ضياعِ الوقتِ واكتساب خبرةٍ حياتيةٍ للقادمِ من الأيام...

جابتِ الدُنى تجبُّ الوقتَ بالمجونِ، تريدُ الرقصَ على حبال الهوى، لاهٍ فؤادها .

رزينٌ ملتزم ينشد الخلاص من أرض الاختبار إلى خلد القرار، بالطاعات يشغل فؤاده، ذات رنا التقت العيون فعبّ من مجونها ونهلتْ من ثباته، حَلُما بالجنان لولا التشدّد بالهوى.

قدّ من ظلام الليل قِطع متجاورات وأسكنها قلبه - يروم الظلم- فاتشحت دماؤه بالسواد .

هيفاء فاتنة وقعتْ في هواه وتماهى في هواها فتحولت دماؤه مدادا يسطر به آيات الغرام حبّاً بها وتوقاً لها، وإذ بها تلوّن سماءها بحبره، ويغشى ليله نهارها.

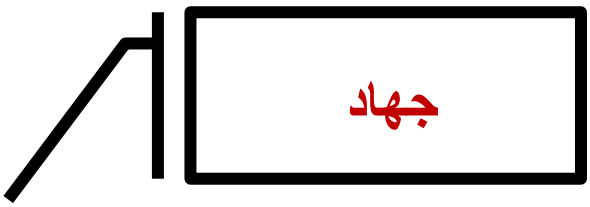

لم تُكمل دورتها العمرية بعد حين قرروا سبيها، تقطيع أحلامها، وأدها في الحياة، ألصقوا بها المسؤوليات العِظام تُريدُ الخلاص، تتزعزع إرادتهم إزاء صمودها، ذات دهرٍ رأيتُها بأمِّ عيني بيضاء، طفولة جدّي.

يلتقيان في آخر أولِ العمرِ، عجوزٌ تمرّ عليه السنين – وللغروب عبراتٌ – يُمسكُ بتلابيبِ الزمنِ، يرجوه الوقوفُ. طفلٌ بهيٌّ يلهو الفرحُ بين يديه، يرومُ لعبة أو قطعة حلوى، يجمعهما كرسي متحرّك، تتشابهُ هيئتُهما وهي غيرُ متشابهةٍ.

في أحد المشافي امرأةٌ نزل بها أعسرُ المخاضِ، تتلوّى ألماً، تفيضُ الروحِ في صدرِها وتغوص . هلّ الولدُ مغشيّاً عليه، هرع الممرضُ لصفعِ قفا الوليدِ. فقال طبيبٌ: تمهَّلْ، أيُّها الفطيمُ لقد وُلِدتَ عربياً فانفجرَ حديث الولادةِ بكاءً.

يربطون الجسدَ الضخمَ إلى طاولةِ التخديرِ، المتواطئون يحتفون بمريضهم - يرومون تخديرَهُ .كلّ حين يؤمّه الخبراءُ من أنحاءِ العالمِ لغسلِ دماغه.

يدرس ويفلح حتى من حوله يُفرح .السلك الوظيفي سلك، تسيير أمور المراجعين غايته، أعلى المراتب نالها حين يطرد الرحمة من قلبه.

روائحُ الرُّبا المنبعثةِ من ثغره دلّت على انفتاحِ فكره، يختالُ بين الناسِ، تزدهي أفكاره ورؤاه، وصل التفوّقُ لابنته في دراستِها فحرمَها الاستمرارُ به .

****

بين النسوةِ لها المكانةُ، تعيّر الأولى وتتندَّرُ بالثانية، هي المثقّفةُ، الواعيةُ، ذاتُ الفكرِ الرشيدِ ـ هكذا تحسبُ نفسها . فلذة كبدها نالتِ العُلا في التحصيل العلمي. هتف بجوفِها: رائع ستنالُ مهراً أكبر.

****

فراشةٌ تتألَّقُ صبا، ينضح من وجهها العبيرـوللشباب وثباتـ

مرارة الأيام لوّنت فرحها، مزّقتها الازدواجية في سكنات

أبويها، فرّت من بؤس الواقع إلى زيفِ النجاحِ مشتهيةَ الجنون.

وسط عتمةٍ بزغَ ثغرٌ صغيرٌ يسألُ: ما سلكنا في كبدِ العيش؟ ردّ قرينُه: أمَا وإنَّ الإرادةَ رفيقتُكَ فلتحيا كما تريد. على جدار الرحمِ مرّتْ " سنريهم آياتِنا في الآفاق وفي أنفسهِم" وجاء من أقصى الموتِ مخاضٌ يسعى وحلّ الوليدان.

حلّ المساء، يترجّلُ عن عربته، تستقبلُه أفواهُ الأطفالِ الجياعِ، يسومه البؤس كل لحظة .

قُرع البابُ: افتح للحلمِ القادمِ حين ستفجّرُ نفسك وسط المصلين.

أمام المرآة تقف متنهدة، ولّى شطرُ العمرِ وجهه، خاطبتها المرآة: كيف مرّتِ السنواتُ؟

-مرّت مرور الثواني وهل تترك السنين أثرها إلّا على الوجوه.

تزوّجَ في فجرِ عمره، يرومُ ذكراً ليحملَ اسمَه، مرَّتِ السنواتُ العجافُ، أمّه يأس متّكِئ، كلّ آن تفيض من جوفِه حسرات ـ وللأسى عَبرةٌ ـ أشرقَ الحلمُ أنثى في رحمِ زوجِه، كظيمٌ يولّى وجهه، عيّروه بأنثاه؛ ذكّرهم بمريم.

تمرّر يدها على شعره، تثب إليه صورة أمه وحنانها-ما أحلاها من أيامٍ- حينما تقضي منه وطراً - يدي تؤلمُني.

أختُهم الصغرى غادرتهْم بعدما ظلموها، روحُها تشتاقهم، هُمُّ الأهل والوطن، تجوبُ سُبُل الحياة يصحبها الأنين. ماتت حسرة – وللمرارة غصّة - وإذ هم خصِمون من سيلحدها.

وقومٌ أضرموا أوار النار، يداً بيد، لاهيةً قلوبهم، من جريمتهم اسودّت حمائم السلام، من ذا الذي يخمدُ النارَ العظيمةَ؟

أطفالُهم يعبثون بالأيام، يخالطُ شذى الربيعِ أحلامهم، أيلولُ أزهرَ، تجلّى النقاء .

مرّ الزمنُ وانكشفتْ جنايةُ الآباءِ فإذ بالأولاد يرقصون على موت آبائهم!

جدّي وزوجُه وأقرانُه يكيلون سيلَ السبابِ على التواصلِ الاجتماعي وأدواتِه، الواتس، الفيس. جمّعوا الأحزابَ على ذلك .

ذات صباحٍ خرجَتْ علينا جدّتي بزينتِها وهتفَتْ أين عصا السيلفي.

مغمضُ العينين يمضي في سبيل تحقيقِ الحلمِ، هاجرٌ لأصدقائِه، متخلٍّ عن جمال ما حوله من حيوات، كل حين يفوته رحيق الأيام - وللأسى غصّةٌ، بعدما ولجَ النورُ عينيه تحققَ الحلمُ وخسرَ لونُ النجاحِ.

والدان وصلتهما رسالة الكترونية ـ كلٌّ على حدة ـ تحوي عبارات الغزلِ، تؤجّجُ المشاعرَ، تستنطقُ الهوى .

رجعَ الشبابُ حين استبدلا لون شعرهما، وإذ بالأحلامِ تميسُ والأماني تصفّقَ، حين موعدِ اللقاءِ هنّأهما ابنهما بمرسالِهِ .

قرّرا الزواجَ، ازدانَتْ بنصفِهِ وتزيّنُ بشطرها، مرّت الأيامُ ونمَتْ براعمُ الخلافِ، دمعاتٌ كئيبةٌ روتِ البراعمُ، حين الانفصالِ بدا نصفهما مشوها.

فراشةٌ تتألّقُ في ريعانِ الصبا، تعبثُ بالمشاعرِ، تلهو، تتلذّذُ بالوشايةِ ـ تحسبُها لعبة، انسحبت البسمات من شفتيها حين اصطادت صديقتها .

ازدادَ الشقاءُ حرقةً، لوم الخليلة أزهر بصدرها الندم.

وسط أصدقائه انبرى حازم بلحية كخيطٍ رفيعٍ وخرزةٍ في أذنه وشعرات منتصبة في رأسه ينتقد الموضة وأهلها، فمدّ له أحد الحاضرين مرآة.

ابنان ووالدان، يمضي الثلاثة في دروب الحياة، يسرعون، يتعقّبون الأيامَ، يختلسون لحظات الفرح وسط كبد العيش، تعثّر الجد وخرّ مضرجاً بسنواته، هتف الحفيد: مهلك أبي، احنْو عليه، انه رفيقي في المرح والوهن.

تدورُ الحياةُ، وتتقلّبُ الأيامُ بين صيفٍ وشتاءٍ، وفي طبقة أرستقراطية قال أحدهم: كم أبرعُ في الطبِّ، أمتلكُ شهادةً بذلك! وصدحَ آخرُ: كذاك حالي في المعلومات وتقاناتِها، من دون الجُدُر المؤصدة واسى الكنّاس قدره وأثنى على نفسه: ولعملي شهادة، لِأجمع قماماتهم.

عبرَاتٌ يسكبها من فؤاده، والألمُ يُسحسح من مآقيه، فالتي أحبّها فيما مضى هجرَته لسواه رغبةً منها في الترف والبذخ، خاصة أنها خليلة الفقر والتراب، وهو كذلك، لكن أحلامه كانت ترقى وترقى حتى لتبلُغ حدَّ الإقامةِ في العاصمة، والاثنان أبناء القرية الغارقة في النسيان. ذات يوم أسرّ لصديقه أنه ينوي الانتقام منها، وذلك بإشاعةِ الأخبار السيئة وتلطيخِ سمعتِها بالسوءِ، بيدَ أنَّ فؤادَه المتيّمَ بهواها ما سمحَ له بذلك، بل ظلّ يسقيه ألوانَ الحنين بين حينٍ وحين، إلى أن أزَّهُ الشيطانُ فارتكبَ الحماقةَ الكبرى، تجلّى ذلك عندما صدفَها في الشارع مع زوجِها فأقدمَ على نزعِ غطاء رأسِها، وراح يُشهّر بها فما كان من الزوجِ إلا أن أجهز على الحبيب العتيق، وما لبث أن قتل زوجتَه بعدما قتلته ظنونه.

من بين الأجداث تراءى طيفان راحا يصولان ويجولان في سماء المقبرة.

ناجى طيفَها طيفُه: كيف سمحتَ لنفسك الحقيرة أن تضيّعَ عليّ باقي أيام عمري وأنا الزهرة في روحِ الصبا أتألّقُ، أناغي الفرح وأشدو قربه بقلبِ يعشقُ البراءةَ ويميس بالنعيم لولا حبَّك الذي كان بالنسبة لي اشتهاء كاللعبِ بالنار والرقص مع ألسنة لهبها فإذ به يحرق روحي ويدفن عمري في الرحيل بطيش أخرق والذنب أني أردتُ أن أردي الفقر قتيلا.

اشتعل طيف العشيق نوراً وراح يُزهر باقات الندم وما لبث أن باح: القلبُ الذي بين أضلعي تحولت دماؤه إلى أنهار جافة تهوى وصلك وتهفو إلى لقائك فالحبُّ الذي أكنّه لكِ عظيم، عظيم، وما استطعت أن أكبح جماح ثورتي، ما احتملتُ أن تكوني لغيري فدافعي الحب، والحبُّ عندي التملّك وألّا تكوني لسواي، لكن هنيئاً لي بكِ هنا لتطيب لياليّ ويحلو بقربك السمر في هذا البرزخ وليكون هذا الحيّز بقربك جنّتي فإنّي إلى جهنم وبئس المصير وأنتِ إلى الجنة ونعم المآل. على أكفّ الحمّى تقلّب جسد الزوج القاتل وما فتئ يصطرخ بألوانها حتى مسّ اليأس قلوب المشرفين على علاجه وقنطوا قنوطاً كبيراً، فالمريض في أوج الصحة لولا عنادُ

الحُمّى التي أبت إلا وأن تزيّن روحه وتكسو عظامه وإذا بالصباح الأخير يزف الموتَ إلى المريض ويُريحه من السقم وفي الليلة الأولى له في القبر رأى طيف الميت التقاء الطيفين خِلسة.

اخلع نعلك أنت في الحضن المقدس الذي يجاهد آناء الليل وأطراف النهار ليتغمّدَك بواسعِ الرحمة والحنان .

ذاك هو حضن الأم الذي اتخذه الأدباء ـ معظم الأدباء ـ نبراسا للجود وآيات العطاء تسحُّ من مقلتيها ذي الحنان، البؤس هنا شريك في حياة من فقد نبع الوداد هذا، ما أشده من عذاب حين ترسم أحلاما بيضاء على حائط الواقع الأسود والأسوأ بذات الوقت، ألا يكفي أن الحزن بنتحب منكسراً دون الذي فقد أمه ولولا ذلك القدْرُ للأمِّ لما كانت الجنة ثمة أقدامها، طوبى لنا بأمهات ترفع أكف الضراعة لتدعو لنا الله بأحلى التراتيل وتجود بأكرم العبارات ـ حريٌ بالناس ذلك.

أن تقول أم فذاك يعني أنك تردد آيات الألفة والمودة فكيف بك حين تبرّها وكيف بالناس حين يخذلون أمهاتهم؟ يطول المداد أسطراً .

رسالة إلى ضمير

التحياتُ المبكياتُ والأماني العقيقةُ إليك أيها الضمير!

ما أقولُ وما أكتبُ وأنت الحاضرُ الغائبُ فينا، هل الأزمانُ اختلفتْ أم اختُزِلتْ في دياجي الفسادِ والمصالح الآثمة والعيونُ النائمة والقلوبُ الهائمة في هوى اللذات تفضيلاً عن الأعرافِ والدينِ والله.

يا أيُّها الضمير مهلكَ فالسبات عميق وزمن الانتباه بعيد سحيق فلا تأس على قوم لجّوا في الظلمات ويرتعون في رحابها، يرومون إعمار الخرائب بالخراب وفوق سماء كلٍ منهم غراب وشيطان أمرد يؤزّه أزّاً، يحسبون أنهم يحسنون صُنعا ولا يدرون أنهم في الغيّ وأشباهه يخوضون.

ألا ترى يا أنا أن من غاب عنه ضميره تجرد بشكل أو بآخر من كل شيء، فلا هو بإنسان يتبع إنسانيته ولا هو حيوان يتبع غريزته فيسرف في التبذير ويبذر في الإسراف بل وتحسبه أعقل المجانين في إعمار قلاع الرمل وتجول بالفؤاد

ـ لحالك ـ آلاف الحسرات وباقات السقمِ وكلُّ الرزايا وحول ذاك الأمر يطول المدادُ أسطراً.

ختاماً لتعلمَ يا نبراسَ الحقّ أنْ لا بدَّ للظلمِ أن ينطوي ولا بدَّ للأغلالِ أن تنكسرَ فكلُّ ما هو شائع الآنَ ما هو إلا فقاعةٌ سوداءُ مصيرها حتماً الذهابُ أدراجَ الرياحِ والويلُ والثبورُ لمن ارتداها زيّا يلوّنُ به أيامَه وأقوالَه وطوبى لمن هجره وحُسنُ مآب.

ومرّت سنابُك عاماً آخرَ على وجوهنا، فيه من الوجع أقساهُ ومن الفرحِ أحلاهُ، أيا قلبي السقيمُ كم من أمنياتٍ خيّبَتْكَ؟ وقدسُ الأحلامِ يطير فيّ كل حينٍ آلافَ الليالي، وأستحضرُ الغيماتِ لأمطرَ التفاؤل فوق الأيامِ المتواليةِ، كحباتِ المطرِ هي، سريعة، متعاقبة، لا نهنّئ بقطفِ جناها حتى تلوذَ بنا الملمّات .ذات عيدٍ دارَ في أفواه الخرافِ سؤالٌ :ألا تخشى النحر بعد حين؟ أجاب أحدها :وما الضيرُ قد خَبِرت الصيف وحرّه والخريف ورحيله الحكيم وكذا الشتاء وقرّه الكليم، وآخر شيء أزهو وأزدهي بأحمالٍ من شأنها استمرارية وجودي .سوى أنّي - وكذا بنو آدم - لا نفتأ نزرع الآمالَ في الأيامِ ونفترشُ الساحاتِ بانتظارِ الزهرِ وحين يأتي الأوانُ ونحرث الأحلامَ البيضاءَ وا أسفاه فكم يخيب الظنّ بالمقبلِ؟ على أطلال الأيام المنصرمةِ فقدنا ساعاتِ فرح، وحطام ماضٍ بهيجٍ لنكسب للدهور القادمة جبال وجعٍ؛ آهٍ عليكِ يا أنفسنا الوديعة، آهٍ من أسابيعَ وشهورٍ لا تجيدُ غير التهام أفراحِنا وأعمارِنا على حدٍّ سواء بما في ذلك ذوات ذواتِنا.

ما تجرّأَ على قراءةِ لغةِ العيونِ في وجوهِ الإناثِ الغريباتِ عنه - حتى الصغيراتِ - ذلك أنّه يحسبُه اجتراحاً لأعظمِ الآثامِ .

ذات اجتماعٍ بإحداهنَّ هوى به الهوى وزلزلَ صروحَ العفّةِ والطهرِ، ودنّسَ القدس بنظراتٍ متهوّرةٍ ماجنةٍ، والفتاةُ تعرفُ جيداً لغةَ العيونِ وتفهمُها وقد لاحظت الارتباكَ المنزوي خلف رمقاتِه فحدثته بلغة أرادت من خلالها شيئاً: إنَّ الأيائلَ التي تحاولُ أن تصطادَ أرنباً لا بدَّ لها وأن تفشلَ، كذلك هو حال الإنسانِ وشخصيتِه التي تنشأُ في فترة معينةٍ، ثم ما تلبثُ أن تبقى ثابتة في الجذرِ متغيّرةً في الغصون، وعلى الرغمِ من أنَّ بعض بنات جنسي قد يعتبرن ذلك إهمالاً متعمّداً يُنقصُ من قيمتها، إلا أني أزفّ لكِ البشرى فلقد امتثلت - إن علمت وإن لم تعلم - للأمر الإلهي "من وراء حجاب" في التعاملِ مع الأغرابِ من النساء، فالعفّة لها نصيبٌ عظيمٌ من العيونِ ونظراتِها، هيّا اذهبْ، انطلقْ، ولتبقى حرّاً من أغلالِ الهوى وقيودِه.

الأيام القادمات خيرُ دليلٍ على ما أقولُ؛ هكذا اختتمَ حديثَه الأبُ المريض بعدما كان يعظُ أبناءَه وانفضَّ الجميع باستثناء الصغيرة التي قالت لأبيها : ما تركت للأيامِ؟ وما ستعلّمنا؟ وقد شرحت وأفضْتَ حول تقلُّباتها؟

ردّ بوهنٍ: يا ابنتي ما هذا إلا غيضٌ من فيضٍ .

وارتعدَ الأبُ المسجّى وتصبَّبَ العرقُ البارِدُ من شعرِهِ الأبيضِ كالثلج، وتخدّرتْ قدماهُ فرجلاهُ فجذعُه حتى وصلَ الخدرُ إلى رأسِهِ وهناك لفظَ روحه .

بين نواحِ النائحين وعويلِ الثكالى تلبّدتِ المشاكلُ في سماءِ العائلةِ حول الميراثِ، كلٌّ يريد أخذَ الحصةِ الأكبرِ بزعم استثمارِها .
تجفُّ تربة الفقيدِ وتزدادُ سخونةُ الخلافاتِ حتى وصلت حدَّ تراشقِ التُّهمِ بالسرقةِ والاحتيالِ .

تبدّدت أواصرُ الودِّ وتقطّعت حبالُ الرحمِ وأضحى كلٌّ أخٍ عُرضةً لدسائسِ أخيه ومؤامرته، من فوق السماواتِ العلا

تاقت روحُ الميتِ لتنهرَ الأبناءِ عن ضلالِهم وتعيدُ إشراقَ النور في رؤوسِهم فهم ليسوا كذلك البتّة سوى أنَّ المالَ يغيّر النفوسِ والطبائعَ وحلّتِ القطيعةُ .

في الاجتماعِ الأخيرِ لهم عقدوا العزمَ على بيعِ كلّ ما تركَ لهم وتقاسُم الحصصِ على حدٍّ سواء بما في ذلك بيتِ العائلة ـ الذي ضمّهم يوم ما كانوا صغاراً يرتعون ـ وهاتيك الأمُّ سلب القهر فؤداها، ما تفعلُ وروحَها تشتاقُ بعلَها؟ وفلذاتُ كبدِها يكادون يفتكون ببعضِهم كرمى لعيونِ النقودِ وبُهرجِها . وعادتِ الأصواتُ لتعلو والأيادي إلى الاشتباك والصغيرة ترقبُ إخوتَها بحسرةٍ مريرةٍ، ومن فيضِ الجنونِ الحاصلِ أتتْها ضربة على رأسِها أدنَتها من أبيها، على مشارفِ الموت تنهّدتِ الصغيرةُ: الأولى بكم أن تتدارسوا نصائح أبينا عوضاً عن الاقتتالِ على درنِ الدُّنى .

طواف السنين

وتمرّ الأيامُ ويتوالى تلفي

هي السنينُ تتراقصُ في باحات أعمارِنا دون أن تكلَّ أو تُنهَكَ، وكلما ازداد رقصُها إجلالاً تناقصت لحظاتُنا في هذه الحياةِ متجاهلةً كلَّ الأفراحِ التي عشناها وكافة زهورِ الأيامِ التي تنعّمَت بها ذواتُنا وكذلك فسحاتُ الهناءِ التي تزيَّنت بها نواصينا .

الغريبُ في الأمر أنَّ رقصَ السنواتِ يظهر على أجسادنا فيحلُّ البياضُ في رؤوسنا ويزيحُ النحولَ قوانا وتتَّضِحُ معالمُ أقدامِ السنين على أرضيات قلوبنا وتلك العصافيرُ التي كانت تشدو لنا أضحت غربانا سود تنعق إيذاناً بقرب الرحيل،

يالَسطوة الزمن، ما أشدها؟

أفي الموت كذلك هو الحالُ؟

ترقصُ السنينُ ونمسي في النهايةِ أغرابٌ فوق غربتِنا وتائهون دون تيهنا وضائعون حول ضياعِنا وملتاعون في جوف لوعاتِنا .

يا أيُّها العدّاءُ السريعُ

يا أيُّها السارقُ - سارقُ الفرحات .

يا أيُّها الزمنُ

- مهلكَ، مهلكَ فلي في الآفاق مسرّاتٌ ما أحلاها ولياليٍ ما أزهاها وأمنياتٌ ما أبهاها وستتحقَّقُ ذات يومٍ، وكذا أفقدُ روحي بين عشية وضحاها .

لعلّك نسيتَ أيُّها الغروبُ حين غروبِكَ أنَّ هناك آلافاً من الأحلامِ ستشرق لا محالة، وأيضاً زفراتٌ حرّةٌ مُرّةٌ ستلفظُها الصدورُ ودمعاتٌ لا حصرَ لها.

يا أيُّها الغروبُ، يا طعمَ الرحيلِ، يا حسراتِ الأيام القادمةِ ها قد ازدانَتِ السماء بألوانِكَ، واكتستِ الآفاقُ بحمرتِكَ، والخريفُ يتنَّزلُ كلَّ عام بملامحِكَ، ويكأن حمرتَكَ القانية هي ذاتها دماءنا ـ المترعة بالألم ـ التي تنبضُ بالوتينِ.

يا أيُّها الغروبُ لعلك نسيتَ أنَّ من بعدِك ليلٌ جميلٌ تتألّق به النجماتُ وتطيب فيه المقامات وتحلو به النغمات وتنجلي في سحرِه الكُرباتُ وتُغنّي فيه البسماتُ وترقصُ على ضفافِه المسراتُ فأهلاً بك أيُّها الخريفُ ـ خريف السماءِ.

سربَ القلقُ في عتمةِ الدُّجى متوجّهاً نحو فؤادي فأصابَني بمقتلٍ من الهلعِ وما عُدْتُ أميّزُ بين زُكاء وأخيها الصغيرِ المنيرِ، حتى قالت لي الرُّوحُ: أبّشرْ يا هذا فلكَ ربٌّ كريمٌ رحيمٌ يخرجُكَ من الظلماتِ إلى الضياءِ ومن الحرورِ إلى النورِ، حينئذ تفتّقَتْ شغافُ القلبِ وعبّتْ من نسائمِ الإيمانِ ومن يومِها وأنا أسلّم أمري لربّي وأناجيه:

بحبِّكَ تنفرجُ أساريرُ العالمِ باسمةً

بحبكَ تتفتح الازهار وتشدو الاطيار

بحبكَ تتهادى الشموس والأقمار

بحبكَ يضيعُ الليلُ ويغرقُ العالمُ بنهارٍ

بحبّكَ يختفي ملح الحياة وتغدو الحياة أنهار

بحبكَ يحلو لي البوح وكشف الأسرار

بحبكَ يحلو الحب ويطيب الحوارُ

بحبكَ يدوم الشباب ويلمع الوقارُ

بحبكَ تتألّق كلماتي وتُثمر الأفكارُ

بحبكَ تذوبُ الصحارى وتورفُ الأشجارُ

بحبكَ يطيبُ العُمرُ وتتزيّنُ الأعمارُ

وإذ الجفونُ ترتعشُ خجلى من كسبِ الذنوبِ وتترقرقُ

الأهدابُ دمعاً يفيضُ، جياشاً بالندمِ ويخفقُ منّي الفؤادُ وإذ

بي بمحرابِ اللطيفِ أهفو.

وفتاة أشرقت فيها الأنوثة على حين وقت وما نعمت بأنوثتها حتى انفتح باب نصيبها أمام كهل أرعن، كللها بالذهب، أزاغ بريق نقوده بصيرة أهلها، باعوها إليه فسطرت على جدار الفؤاد بمداد الوجع:

هذه القيود أنهكت منّي الفؤاد وما تركت لي سوى آهات متراكمة بعضها فوق بعض لكن والذي نفسي بيده لأحطمنّ هذه الأغلال ولأنتصرنّ عليها أيُّما انتصار وما لي سبيلٌ إلا أن استلّ حسام الألوان لأستقي منه قوّة ما عرفتها القوى.

ها أنا ذا أحقق الانتصار تلو الانتصار وأجني الفرح إثر الفرح وتزهو لي الزهور ويفيض منّي السرور ويستحيل الحديد الصدئ ذهبا برّاقا يخطف الأبصار وتزدان به قطع جسدي المتجاورة .

وا انكساري وبؤسي لا زلت مقيدة ولا استطيع الحركة، تبا لقيود من ذهب.

أسرارُ الألم ما علمت بها سوى روحها،
غربة النفس أدهى وأمرّ من غربة الجسد؛
ويمتد سرطان الأسى وينمو حتى ينخر
جدران الفؤاد، هكذا أيقنت في ذاتها. فجأة
انفجر بركان بؤس حين تجلّى القيد سوار
ذهب.

المؤلف